الفصل الثالث
مدارس الفكر الإسلامي

إن المنظور الإسلامي يمكن تحصيله من مصدرين اثنين. الأول: من خلال أعمال ونتاج مختلف المفكرين المسلمين، والثاني هو محاولة الفهم العقلي المباشر للقرآن الكريم، في ضوء السُنة التي تتضمن كلا من التوجيه القولي والفعلي للرسول ﷺ. غير أن مدى أصالة وصحة المصدر الأول لفهم الإسلام، قد صار بمرور الزمن أكثر ريبا وسببا للالتباس، لأن العلماء والمفكرين المسلمين كانوا يميلون باطراد إلى أن يكونوا أكثر تزمتا في قياساتهم وآرائهم، التي قد لا تكون دائما بالضرورة منطقية ومعقولة. وبالإضافة.. فإن ما يعتبرونه "إسلاميا"، كان يعتمد أولا بطبيعة الحال على دراساتهم ومفهومهم للأصول الإسلامية. أما من يبنون فهمهم وقياسهم على القرآن والسُنة فيمكن اعتبارهم ضمن فئة خاصة، إذا التزموا بالقواعد العقلانية بدقة. وسوف نقدم في نهاية هذا الكتاب دراسة تحليلية من هذا القبيل لمبادئ الإسلام الأساسية. أما الآن فإننا نركز اهتمامنا على المفكرين المسلمين، ونبحث القضايا الفكرية للسابقين من العلماء والحكماء والفلاسفة المسلمين، في المرحلة التي أدت إلى تكوين مدارس عديدة للفكر الإسلامي.

وقد كان هناك عاملان لهما تأثير خاص خلال الحقبة الأولى من التاريخ الإسلامي:

١) كان أثر القرآن والسُنة هو الأكثر قوة والأشد تأثيرا، الأمر الذي أدى إلى ثورة في مفاهيم المعرفة، ووسّع آفاق الدراسة والبحث والتقصي بشكل لم يسبق له مثيل.

٢) لقد لعب الاهتمام المتنامي بالفلسفة والعلوم اليونانية، ودراسة

الفلسفات الكلاسيكية القديمة للهند وفارس والصين أيضا دورا في صياغة الفكر الإسلامي. وهذا مهّد الطريق لبعض الفلاسفة الأجانب لأن يصيروا محل اهتمام المسلمين، إما بشكل مستقل أو بشكل يرتبط بالتعاليم الإسلامية.

وبسبب هذا الاهتمام بالفلسفات الدخيلة، والرغبة في ربطها بالوحي القرآني، نشأت مدارس فكرية جديدة. وسُمِّيَت هذه المدارس الفكرية مدارس إسلامية، لأنه ببساطة.. في أول الأمر.. كان الفكر الإسلامي، والتعليم الإسلامي، والعقائد الإسلامية، هي المهد الذي نشأت فيه تلك المدارس الفكرية. وعلى ذلك، فإن هذه الفلسفات الأجنبية على الإسلام، التي ترابطت وتداخلت فيها أفكارها القديمة، قد تأسست كلية على قاعدة من الدراسات القرآنية. ورغم أن البعض من العلماء ذوي الأفق الضيق كانوا يدمغون تلك الفلسفات بأنها غير إسلامية، لأنها كانت تتميز بالمرونة والتفهم، إلا أنه ليس هناك بادرة من شك في أن هؤلاء العلماء الفلاسفة العظام ظلوا دائما وأبدا مسلمين، ونادرا ما كان ارتباطهم بالفروع المدنية للمعرفة.. على حساب عقيدتهم وإيمانهم. وبهذا الخصوص، كان لكل فرد الحق أن يقرر لنفسه، بعد الدراسة المناسبة للقرآن والسُنة، ما إذا كان أي منظور فلسفي لأحد هؤلاء المفكرين يمكن قبوله على أنه إسلامي أم لا. ومع هذا، فإن النتائج التي كانوا يتوَصلون إليها، كانت دائما مطروحة وقابلة للبحث والتمحيص. وقد يجدها البعض تتفق مع التعاليم الإسلامية وقد لا يجدها البعض كذلك، ومع هذا فليس من حق أحد أن يشك في نياتهم. إن من حق كل من يبحث عن الحقيقة بإخلاص أن يكون له رأيه الخاص، بعد قيامه بمحاولة صادقة ومخلصة لفهم القرآن والسُنة بعمق. ومن حق الآخرين أن لا يوافقوا على آرائه، ولكن ليس لأحد السُلطة أن يمنع الآخر من حقه المشروع في أن يعتقد ما يشاء، وأن يعتقد أيضا أنه على صواب.

وسوف نُقدم الآن باختصار بعضا من المدارس الفكرية في الإسلام التي نشأت بسبب اختلاف النتائج التي خرجوا بها بعد دراسة مستفيضة لنفس المصادر. غير أنه يجب التنويه بأن كل مدرسة فكرية تقول إنها تقوم على القرآن الكريم والسُنة الشريفة، فلا بد من تقييمها بحرص شديد، وبشكل مباشر، على الأدلة التي تستند عليها من القرآن والسُنة. فليست كل الأفكار والآراء التي راجت في الحقبة التي علا وازدهر فيها الإسلام، يمكن أن توصف بأنها إسلامية في خصائصها. فالبعض منها كان يتعارض جزئيا، وأحيانا يتعارض تماما، مع بعضها الآخر. غير أن هذا لا يسلب منها الحق أن تُعتبر أنها إسلامية في فحواها.

الأشعريـــــــة

تَدين المدرسة الفكرية الأشعرية للإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠-٣٣٠هـ) بإعطائه إياها السمت المتميز بين المدارس الفكرية الأخرى السائدة آنذاك. وكان ذلك في حقبة تَزايدَ فيها سريعا اتجاه بعض العلماء المسلمين نحو العقلانية، مما تسبب في حدوث رد فعل مضاد لهذا الاتجاه. وعلى رأس حركة رد الفعل هذه كان الإمام المشهور إسماعيل الأشعري. ومن الطريف أن أستاذ الأشعري نفسه، (الجبائي الذي توفي عام ٣٠٣هـ)، كان أحد أعلام العقلانيين في زمنه. ولم يفصح الإمام الأشعري عن معارضته للعقلانيين فحسب، بل إنه كشف بقوة عن مواطن الضعف في أي فكر يجعل الاعتماد كله على العقلانية كوسيلة وحيدة لمعرفة الحقيقة.

ويرى الأشعرية أن العقلانية لا تؤدي إلى الحصول على أية معارف، ولا إلى معرفة الحقيقة الأزلية، بل اعتبروا أن العقلانية تؤدي إلى الشك والتناقض الكثير. فالأشعرية يؤكدون على أن المعرفة الحقيقية هي التي تقوم وتتأسس على الاعتراف بالوحي وقبوله، باعتباره الوسيلة الوحيدة

التي يمكن بها الوصول إلى الحقائق الأزلية، لأن المرجع الأخير للحقيقة هو الله تعالى نفسه. وعلى هذا، فإن السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة هو الوحي الإلهي.

وبسبب ردود الفعل لدى الأشعريين تجاه العقلانيين، فإن بعضًا منهم تطرف إلى درجة بعيدة، بلغت إلى حد رفض أي تفسير للآيات القرآنية يؤيده المنطق البشري. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا، حتى أنكروا تماما أي تفسير مجازي للقرآن الكريم. وقد كان الإمام الأشعري نفسه عالما منطقيا بارعا، ولعله من الطريف أن الأدلة التي قدمها ضد العقلانية كانت بنفسها مبنيّة على العقل والمنطق. وفي المقطع التالي يتضح موقفه من خلال إحدى مناظراته الشهيرة مع أستاذه العلامة الجبائي:

سأل الأشعريُ.. الجبائيَ: "ما رأيك في المصير الأخروي لثلاثة من الإخوة: أحدهم مؤمن، والثاني غير مؤمن، والثالث طفل؟

فأجاب الجبائي: "المؤمن سيذهب إلى الجنة، وغير المؤمن سيذهب إلى جهنم، ولكن الطفل لن يذهب إلى الجنة ولا إلى النار، لأن ليس من أعماله ما يستحق به الثواب أو العقاب".

فقال الأشعري: "إن الطفل قد يحاجّ الله تعالى قائلا: إذا أخرتني بعض الوقت، كنت أستطيع أن أقوم بفعل بعض الحسنات من الأعمال، فلماذا إذن أُحرَم من دخول الجنة؟"

فأجاب الجبائي: "يمكن لله أن يجيبه قائلا: "كنت أعلم أنك إذا كبرت في العمر فإنك كنت سترتكب السيئات، وعلى هذا فإن موتك في هذا العمر هو فضل عليك، فإنك بذلك قد نجوت من عذاب جهنم".

فقال الأشعري: "إن الأخ غير المؤمن في ذلك الوقت سوف يتدخل في المناقشة ويلقي باللائمة على الله، لأنه لم يتوفه في نفس عمر أخيه الطفل، فينجو بذلك من ارتكاب السيئات".

ومن الواضح أن الأشعري، رغم أنه كان يُناظر ضد العقلانية، فإنه

نفسه كان يستعمل كل أسلحة العقلانيين. ولذلك فمن الخطأ القول بأنه كان كلية ضد العقلانية. وعلماء هذه المدرسة الفكرية، من أمثال الإمام الغزالي والإمام الرازي، كانوا يعتمدون كثيرا على الأدلة العقلانية لحل المشكلات وتوضيح معتقداتهم. ولعل رد الفعل العنيف ضد الاعتماد على العقل وحده، كان بسبب الخوف من أن الفلسفات الجديدة.. التي بدأت تغزو الساحة الدينية.. قد تتسبب في الانحراف عن الأفكار الإسلامية. فقد ساد الظن بأن استعمال العقل يمكن أن يؤدي إلى حركات تحيد في النهاية عن الإسلام الصحيح. وعلى هذا، فإن جميع تلك الحركات التي كان لها اتجاه عقلاني، كانت تُدمغ بأنها إلحادية أو مُبتدعة، وهو وصف ازدرائي.. لأنه يعني الانحراف عن الطريق المستقيم. وكان الخوف من التقليد المتشدد ينعكس في الألفاظ والأوصاف التي استعملوها لوصف أصحاب الحركات العقلانية، فقد كانوا يصفونهم بأنهم "معتزلة"، أي أولئك الذين حادوا بعيدا عن الصراط المستقيم وصاروا ملحدين.

ومجموعة أخرى كانت تُعرف باسم الماتريدية (Maturidiyya) (أتباع أبو منصور الماتريدي) كانت تؤمن بأن الوحي يجب أن يُقبل أولا على أنه وحي سماوي، ثم بعد ذلك يمكن البحث عن التفسيرات المنطقية التي تؤيده. كانوا يؤمنون بأن الوحي يُقوي الإيمان، بينما تضفي التفسيرات المنطقية المزيد من الاطمئنان إلى ذلك الإيمان. ولم ترفض الأشعرية التفسيرات المنطقية كلية، ولكنها اعتبرتها حشوا لا طائل منه؛ فإذا ما توافرت تلك التفسيرات فبها ونعم، وإلا فإن ما تلقاه الإنسان من الوحي فيه الكفاية، حتى ولو كان بغير سند من المنطق والعقلانية.

وعلى الجناح اليميني من الحركة الأشعرية نشأت فرقة أخرى تُعرف بالسلفية، (وهم الذين يتبعون اتباعًا أعمى عقائد أهل السلف). وعند هؤلاء يجب أن يُقبل الوحي بغير أي نقاش أو سؤال. فلم يسمحوا بأي تفسير فلسفي ولا توضيح منطقي، حيث كانوا يخشون أن تؤدي هذه

الأمور إلى الانحراف عن الطريق الصحيح.

المعتزلـــــــة

وأما المعتزلة، فهم لم يرفضوا فكرة أن يكون الوحي أكثر الوسائل تأثيرا في هداية المرء إلى الحقيقة، ولكنهم كانوا يؤكدون أن المعنى الحقيقي للوحي ورسالته، لا يمكن أن يُفهم فهما صحيحا بغير استعمال العقل. وعلى هذا فقد أعطوا للعقل أهمية تفوق الوحي في الأحوال التي يبدو فيها فقط أن الاثنين يتعارضان معا، ففي هذه الحالة كانوا يرون أنه يجب أن تكون الأولوية للتفسيرات العقلانية، ليس كبديل للوحي، ولكن كتبيان واضح للرسالة الموحاة. وكانوا يعتقدون بأنه من المتعسر جدا الوصول إلى حقيقة معاني القرآن الكريم والسُنة بغير العقل، الذي يفسر الأمثال العديدة والكنايات الكثيرة والرموز المتعددة الموجودة هناك. فمثلا يذكرون أن التعبيرات الكثيرة مثل "يد الله ووجه الله" يجب أن تُفسر على أنها تعني قدرة الله وفضل الله، وهلم جرًّا. بينما يؤكد الأشعري بدوره على أن هذه التعبيرات القرآنية هي صفات حقيقية لله تعالى الذي لا تُعرف طبيعة ذاته، غير أنه يوافق على أن هذه التعبيرات لا تعني أبدا أوصافا لأعضاء مادية.

ورغم أن حركة المعتزلة تبدو وكأنها تتشابه في سماتها مع المدارس الفكرية الأوربية، في الفترة ما بين القرن التاسع إلى القرن السابع عشر الميلادي، إلا أنها لم تنتهج المنهج الإلحادي الذي سلكه الأوربيون العقلانيون، خلال مراحل الانحطاط المطرد. لقد ظل المعتزلة ينهلون دائما من المصادر الإسلامية الأصلية.. في القرآن الكريم والسُنة الشريفة.. لتأييد وجهات نظرهم، مستظلين دائما بقربها، ولم يسمحوا لأنفسهم أبدا أن يتباعدوا أو ينحرفوا عنها.

واليوم.. لم يعد هناك من فرق واضح بين وجهات النظر عند المعتزلة

والأشعرية. ورغم أن المنظور التاريخي الذي قدمناه عاليه، قد ترك بصماته على الدراسات العلمية لعلماء المسلمين في الجيل المعاصر، إلا أن الاختلافات الحادة في الماضي لم تعد ظاهرة بكل وضوح. إذ يبدو أن علماء اليوم يُبرزون أفكارهم الشخصية أكثر من أفكار أي من المدارس الفكرية الطائفية السابقة. ورغم ذلك، فإن بقايا أفكار الماضي القديم ما زال يُلمَح أثرها. وهي نتاج تقارب تدريجي كان يتزايد باطراد بين مختلف المدارس على مر العصور. وبين هؤلاء من يصرون على البقاء في مسلكهم بعقلية العصور الوسطى، ولكنهم لا يستشهدون بأقوال أو آراء أي من المدارس السابقة لتأييد وجهة نظرهم. إنهم يقفزون من أقوال عالم إلى آخر، بحثا عن واحد من العلماء ينتمي إلى أية مدرسة من المدارس، يمكن لهم الاستشهاد بأقواله ليثبتوا به صحة آراءهم. وقد اختفت بالنسبة لهم الاختلافات التي كانت بين العديد من المدارس الفكرية في العصور الوسطى، إلا أن روح العصور الوسطى ومفاهيمها نفسها.. لا تزال موجودة.. تقود خطاهم. ونفس الشيء.. تقريبا.. يُعتبر صحيحا بالنسبة لما يُسمى بعلماء التحديث أو التجديد. فحيثما يتفق الأمر مع أهوائهم وأغراضهم، فإنهم لن يترددوا في الاستشهاد بأقوال أي من العلماء القدامى، ولكنهم يشعرون بأن لهم حرية الابتداع في الأمور الأخرى، التي تعبر عن وجهات نظرهم الشخصية.

المتصَوّفـــــــة

لقيَت الصوفية قبولا واسعا في تركيا وإيران، وفي بلاد شرق عموداريا (Amu Darya)، وهي منطقة تُذكر تاريخيا باسم ترانس – أوكساس (Trans-Oxus). والكثير من المسلمين في الاتحاد السوفيتي السابق كانوا من أتباع الصوفية، التي لعبت دورا هاما في إبقاء الإسلام حيًّا في بلادهم، خلال الحقبة القيصرية والشيوعية.

والنقطة التي يركز عليها الصوفية بقوة، هي أن روح الوحي تعمل تحت الشكل الخارجي للدين، ويجب أن تُعطى لهذه الروح الأفضلية فوق الشكل. وما يفهمه المتصوّفون على أنه روح الدين الأساسية، هو ببساطة الهدف الأسمى الذي تسعى الأديان جميعها لتحقيقه. وهذا الهدف الأسمى هو حب الله تعالى ووصاله. وعلى هذا، في رأي هؤلاء، إذا بلغ الإنسان هذا الهدف الأسمى، عن طريق الالتزام بالشكل أو بغير الالتزام به، يكون قد حقق الغرض، وهذا هو كل المطلوب. ولكن لم يتخل جميع المتصوفين كلية عن الشكل، بل استمروا في إخضاع حياتهم لقوانين الشريعة الإسلامية كما فهموها. ومع ذلك فإنهم لم يكونوا يبذلون معظم جهودهم في تأدية العبادات الظاهرية، وإنما في ترديد بعض الصفات الإلهية ليل نهار، حتى يتمكنوا من تركيز انتباههم كلية على ذكر الله. وأحيانا.. كانت بعض هذه الممارسات تميل إلى مشابهة تمارين اليوجا التي سوف نتحدث عنها في الفصل الخاص بالهندوسية. وأحيانا كان بعض الصوفية يبتدعون أساليب وأشكالا للذكر، صارت في نهاية الأمر منفصلة تماما، وبعيدة كل البعد عن السُنة المعروفة للنبي ﷺ. ومع هذا فإن أتباع تلك الطرق الصوفية تمسكوا والتزموا بتلك الأشكال بقوة ووَله، وبشدة تفُوق التزامهم بالتعاليم القرآنية نفسها. وبهذا نبتت مدارس فكرية جديدة بين المتصوفين في أزمنة مختلفة وفي بلاد متعددة من العالم الإسلامي.

وليس من غرضنا هنا الدخول في تفاصيل الفكر الصوفي.. ولا تلك الفرق والطرق التي تشعبت فيما بعد عن الفكر الصوفي. غير أن هناك أمرا معينا ينفرد فيه الفكر الصوفي في الإسلام ويتميز به في وضوح تام من بين جميع الممارسات المشابهة، وهو الاعتقاد الذي لا تشوبه شائبة من الشك والريبة باستمرار الوحي وإمكان الاتصال بالله تعالى. ونجد في الواقع أن جميع المتصوفين البارزين قد أعلنوا أنهم في وصال مستمر مع الله تعالى، والكثير من الوحي الذي تلقوه قد دُوّن في العديد من الكتب الموثوق بها.

ومع هذا.. فإن هناك بعضًا من المتصوفة الذين قطعوا تماما كل العلائق مع أصول الإسلام. وعند هؤلاء.. كان الغرض من الدين هو أن يوصل الإنسان إلى الله تعالى، وعلى هذا فإن جميع العبادات بأشكالها المتعددة تصير بغير طائل بالنسبة لهؤلاء الذين حققوا هذا الغرض. وقد ابتدع هؤلاء وأدخلوا بعض التمارين الذهنية والروحية، مدّعين أنها تكفي لتحقيق نوع من الوصال بين الإنسان وبين الله تعالى، يُعَبر عنه أحيانا بأنه إدراك بالتوحد معه ﷻ. ولم يطل الأمر إلا ووجدت الموسيقى والمخدرات طريقها إلى هذه النوعيات من الطرق الصوفية، لتنفصل بها تماما عن الواقع والحقيقة، وتهوي بها بغير هدى في عالم من الخيال. ومع هذا.. فإن جميع الفرق الصوفية لم تبدأ رحلتها بالابتداع، وإنما تردت في هذه البدع بعد أن تطاول عليها الزمن، وأصابها التدهور والانحطاط.

وهناك أربع فرق كبرى لها وزنها وثقلها بين الفرق الصوفية، غير أنها حادت هي الأخرى بمرور الزمن عن صراط الشريعة، مع أن ولاء والتزام مؤسسيها بالقرآن الكريم والسُنة الشريفة، كان دائما أمرا فوق كل شبهة وبلا أية شائبة. وهذه الفرق الكبرى هي الجشتية والسهروردية والقادرية والنقشبندية، وهي فرق انقسمت بدورها إلى فرق أخرى متعددة. وكلها تؤكد على أهمية التقشف والبساطة البالغة لتسهيل مهمة الوصول إلى الحقيقة. وفي أول الأمر لم تكن تُعتبر هذه الممارسات بديلا عن العبادات الإسلامية المعتادة، وإنما كانت ممارسة الزهد والتقشف إضافة إلى هذه العبادات.

وبالتدريج.. بدأ مفهوم العلاقة بين الخالق والمخلوق يتأثر بالفلسفات التي كانت غريبة عن الإسلام. فمثلا.. يمكن تقصي آثار الفلسفة اليونانية القديمة لدى بعض الطرق الصوفية، التي تبنّت نظرية وحدة الوجود اليونانية مع بعض التعديل، رغم المعارضة الشديدة لهذه النظرية من الفرق الأخرى. ويؤكد معارضو نظرية وحدة الوجود على أن هناك خطًا

واضحًا وفاصلا بين الله تعالى وخلقه. ويرى هؤلاء أنه رغم أن الخلق يحمل سمة الخالق ويُبرز صفاته، إلا أن الخلق ليس مضمرا في ذاته تعالى. وفي المقابل نجد أن بعض الفرق الصوفية الأخرى تعتقد أنه حيث إن الكون هو مظهر لله تعالى، فلا يمكن التمييز بين الخلق والخالق. ويرى هؤلاء أنه لا يمكن فصل المخلوق عن الخالق، لأن صفاته تعالى غير منفصلة عن طبيعة كل ما خلق، فلا يمكن أن يكون هناك خط فاصل، وبالتالي فإن الله هو الكون والكون هو الله، ومع ذلك فإن لله إرادة مستقلة، تعمل كعمل الصفات الطبيعية للمادة.

وقد تبدو هذه الفكرة في أول الأمر متطابقة تماما مع فكرة وحدة الوجود التي تقول بأن الله هو كل شيء وكل شيء هو الله، ولكن لا بد من ملاحظة اختلاف هام مع نظرية وحدة الوجود. إن فكرة وحدة الوجود لا تعترف بوجود مستقل لخالق مدرك، أيْ ذات تتصل بالإنسان عن طريق الوحي، وتهتم بما يصيب الإنسان من ابتلاءات ومحن وأفراح، وتقدم له طريق الهداية. إن المتصوفة المسلمين.. بعكس فكرة وحدة الوجود القديمة.. استمروا في الإيمان بذات مستقلة لله تعالى، الذي رغم تجليه في المخلوق، فإنه كان الخالق أيضا.

وفيما يتعلق بطبيعة أهل التصوف ومزاجهم الخاص.. فهم قوم من النادر أن ينخرطوا في المناظرات الكلامية الحادة. وفي أغلب الأحيان نجد أنهم يميلون إلى الاعتدال في عقائدهم ويُبدون الاحترام والتسامح تجاه وجهات النظر المخالفة لهم.. الأمر الذي لا يتّصف به المتزمتون الذين كانت تستعر غيرتهم باطراد من أهل التصوف. وعلى هذا فقد عانَت معظم الفرق الصوفية من العداء الشديد على أيدي رجال الدين المتزمتين، وكثيرا ما قامت حركات مقاومة للصوفية بين هؤلاء المتزمتين. وقد عانت كل فرقة من الفرق الصوفية الكثير من المتاعب المماثلة من وقت لآخر. وتعرّض الصوفيون.. وبالذات الذين كانوا يؤمنون بنظرية وحدة

الوجود.. لأن يكونوا هدفا لحنق رجال الدين ممن ينتمون للاتجاه السائد، وأحيانا كانوا يتعرضون لأحكام القتل، بل وكثيرا ما قُتلوا غيلة دون هوادة. ولم تُجْدِ كل تأكيداتهم بأن فلسفتهم عن وحدة الوجود لا تمس بحال من الأحوال وحدانية خالقٍ أعظم مستقل في وجوده، بل كانوا يُتّهَمون دائما بأنهم يدّعون مشاركتهم الله في ألوهيته. ومن هنا كان المتزمتون على الدوام ينْزعون إلى ارتكاب الكثير من الجرائم لاضطهادهم.

ولعل أبلغ مثال على هذا الاضطهاد هو واقعة اضطهاد العالم الصوفي المعروف منصور الحلاّج، مما يُبين كيف أن هؤلاء الصوفيين كانوا يُتّهمون بأنهم يدّعون الألوهية. فقد حُكم عليه بالموت شنقا لأنه صاح مرة في نشوة روحية قائلا: "أنا الحق.. أنا الحق". وقد فهم المتزمتون قولته هذه بأنه كان يدّعي بأنه هو الله نفسه، بينما كان يتحدث وهو في ذروة انجذابه الروحاني نحو الله تعالى عن انمحاء ذاته كلية. وما كان يَعنيه هو أن شخصه وذاته لم تعد لها أية أهمية على الإطلاق، وإنما الأهمية والفضل كله لله. لقد صعد منصور الحلاج إلى منصة حبل المشنقة رافعا رأسه عاليا، ولم يُرهبه بتاتا الموتُ المحتم الذي كان ينتظره، ولم تختف صيحاته في صخب السباب واللعنات التي كانت تُصَب عليه، بل ارتفع صوته عاليا واضحا جليلا: "أنا الحق.. أنا الحق"، إلى أن تحررت روحه منطلقة إلى ينبوع الحياة في علّيين.

وقد نشأت فرقة أخرى من فرق الصوفية، حول قضية ما إذا كان العالم الخارجي هو حقيقة واقعة أم هو مجرد تصَوُّر في العقل. وقد كان هذا السؤال محل نقاش لزمن طويل، حتى لقد تناوله أرسطو وأفلاطون. ولم يمكن التوصل إلى نتيجة آنذاك، ولم يستطع الصوفية أيضا تقديم إجابة شافية له. ولا يزال حتى اليوم موضوعا حيا للمناقشة بين الفلاسفة. ولا يستطيع أيٌّ من الفلاسفة المعاصرين تجاهله، لأن المكان والزمان لا يمكن أن يُتَصَوَّر بغير استعمال العقل. إن خيال الشخص المجنون يبدو بالنسبة له

حقيقيا، تماما كما تبدو قوانين الطبيعة للعالم حقيقية أثناء عملها. وحين النظر إلى هذه المسائل من هذه الزوايا يبدو أنها لا يمكن أن تُحَل.

إن انطباع كل إنسان عن العالم الذي يحيط به يختلف عن انطباع الآخرين. ومع هذا فإن البعض غالبا ما يشتركون في نظرتهم وفهمهم لعناصر العالم المحيط بنا. فمثلا.. معظم الناس قد يوافقون على تعريف شيء بسيط مثل الكرسي أو المنضدة، ولكنهم قد لا يتفقون بالضرورة على العديد من الأشياء الأخرى. فألوان الأشياء مثلا قد تبدو مختلفة لدى الأشخاص من ذوي القدرات البصرية المختلفة. وأيضا.. لا نشترك جميعا بالتساوي في حظنا من الملكات والقدرات المختلفة. إن حاسة الشم تختلف، والإحساس بالحرارة أو البرودة أيضا يختلف من شخص لآخر. وبالإضافة.. فإن اختلاف زاوية النظر يجعل الشيء المنظور يبدو لنفس الناظر بشكل مختلف، وعلى ذلك فإن إدراك شيء ما قد يختلف لدى نفس الشخص حين تختلف زاوية النظر. وحينما نضيف إلى هذا اختلاف الأمزجة وتباين الأحوال الصحية، نجد أن المشكلة تزداد تعقيدا. ولن تبدو أية حقيقة موضوعية أنها تتفق تماما مع ما يفهمه الناس عنها. وباختصار.. فإن المدركات التي يسبرها العقل لا تكون دائما في تطابق تام مع عناصر العالم المنظورة. وهذا، في رأي بعض الفلاسفة، يجرد الناظر من إمكانية الوصول إلى اليقين التام فيما يتعلق بما يراه ويدركه.

وموضوع عدم اليقين وعدم التمكن من الاعتماد على حقيقة المدركات كما سبق بيانه، نشأت عنه فرقة صوفية أخرى تُنكر تماما وجود أي شيء بحسب شكله الخارجي، وتدّعي أن الحقيقة الأزلية ليست سوى انطباع واهم. وقد أنكر المغالون من هؤلاء وجود أي شيء مادي مهما كان شكله الخارجي، بما فيه إنكار وجود ذواتهم أنفسهم. وبذلك، فإن حركة ذهنية عقلانية.. بدأت بمحاولة لحسن التمييز الدقيق لمظهر الحقيقة الخارجية.. انتهت بالجنون التام. ومع هذا.. كان هناك سحر

غريب في هذا الجنون، إذ كان يصيب أحكم علماء المنطق والمثقفين في زمانهم.

وهناك حادثة طريفة تتعلق بزعيم صوفي لهذه الفرقة، استُدعي إلى بلاط الملك لعقد مناظرة مع بعض البارزين من علماء عصره. ولكن لشديد دهشة الجميع وبالغ استيائهم.. تطورت المناظرة إلى العكس تماما عما كان الجميع يتوقع لها، إذ لم يتبادل المتناظرون سوى بعض الدلائل والحجج والردود إلا وتبيّنتْ ضحالة آراء العلماء البارزين في البلاط، فراحوا يلهثون لالتقاط أنفاسهم وهم يبحثون عن كلمات يستطيعون بها الرد، و لم يتمكن أحد من مقارعة تعقيدات المنطق الأثيري للصوفي. عند ذلك.. خطرت للملك فكرة رائعة، فأمر حارس بيت الفيلة أن يحضر إلى فناء القصر أكثر الفيلة وحشية وضراوة. فأحضر الحارس فيلا كان قد أصابه جنون لا يقل عن الجنون الذي أصاب الصوفي، و لم يكن من اختلاف بينهما سوى أن لا شيء يبدو له وجود في عقل الصوفي، بينما كان الفيل في هيجانه وضراوته يريد أن يحطم كل شيء له وجود من حوله. وزُج بالصوفي من أحد جوانب فناء القصر بينما أُطلق الفيل من جانب آخر، وإذا بالصوفي يركض هاربا بغير أي تردد لينجو بحياته.

وصاح الملك من شرفة قصره وهو يشاهد ما يجري فقال: "لا تفر ولا تجرِ أيها الصوفي من هذا الفيل الذي لا وجود له في الحقيقة سوى في الخيال، فهو ليس إلا صورة مختلقة في مخيلتك".

فرد الصوفي صائحا: "ومن ذا الذي يفر ويجري؟ إنها صورة مختلقة في مخيلتك".

وهكذا انتهى مأزق الصوفي، ولكن لم تنته المناظرة نفسها.. فهي لا تزال مستمرة.

المدرسة الأسبانية للفكر الإسلامي

لقد ناقشنا من قبل القضية الخلافية عن سمو منْزلة الحقائق الموحى بها بالنسبة للحقائق المشاهدة، ويعطي بعض المفكرين أفضلية للوحي على المنطق، بينما البعض يفعل العكس. وكان من رأي ابن رشد (المعروف في الغرب باسم أفيروس Averroes)، وهو أحد المفكرين المسلمين العظام على مدى الأزمان.. أن الرأيين السابقين يُعبران عن حقائق متوازية، ويجب أن يُنظر إليهما بمنظار مختلف. فالحقائق التي يأتي بها الوحي يجب أن تُقبَل بهذه الصفة، والحقائق المكتسبة من المشاهدة والتجربة يجب أن تُقبَل على حالها. ولم يكن من الضروري في رأيه أن يكون هناك ارتباط بين الاثنين، وليس هناك ما يدعو للبحث في وجود تناقضات بينهما أو محاولة حلها.

ذلك هو الزمن الذي كان العلماء المسلمون في أسبانيا يحققون فيه تقدما علميا واسعا في الكثير من المجالات العلمية، ولم يفت في عضد هؤلاء أن بعض العلماء من المدارس الفكرية القديمة أصدروا ضدهم فتاوى الإلحاد. ولعل ابن رشد رأى أنه من الأفضل ألا يتورط في هذه الخلافات، حتى لا يتسبب في إعاقة تقدم العلوم.

ولكن من الواضح أنه تجنّب خطر اكتشاف وجود تناقض بين العلم والدين، وبالنسبة لشخص مثله.. يؤمن إيمانا صادقا بالإسلام، وكونه عالما كرّس نفسه للعلوم التجريبية بغير تعصب، فإن هذه السياسة أثبتت حسن جدواها في خدمة أغراض كل من الدين والعلم لزمن طويل في أسبانيا. ولم يواجه أحد خطر التناقض أو التضارب بين الحقيقة الموحى بها وبين الحقيقة التجريبية، وعلى هذا فإن موضوع أفضلية رأي على آخر لم يُبحث بشكل فعال. وقد ظلت سياسة "عدم المواجهة" هذه سائدة في أسبانيا لعدة قرون، ويرجع الفضل في ذلك بشكل خاص لحصافة وحكمة ابن رشد.

وحينما نعيد النظر في القضايا الخلافية في ضوء ما تمخضت عنه الأحداث فيما بعد، نستطيع أن نقول بيقين إن الوقت لم يكن مناسبا بعد للخوض في هذه القضايا. إذ كان من غير المستبعد أن يحدث فهم ناقص أو جزئي، أو حتى سوء فهم تام للحقائق التجريبية.

فعلى سبيل المثال.. في العصور الوسطى لم تكن أفكار العلماء المسلمين عن الكون مبنية على القرآن الكريم أو الحديث الشريف، ولكنها كانت في أغلبها متأثرة بالجهل السائد في ذلك الحين. وكان علماء الدين، كما هو الحال دائما، يعتبرون أن رأيهم هو رأي الإسلام، وعلى هذا يكون هو الرأي النهائي، بينما لم يكن بوسعهم فهم الحقائق القرآنية فهما صحيحا في ضوء المعارف السائدة آنذاك.

أما في أسبانيا.. فلم يجر على ما يبدو نقاش حول هذه القضايا بين العلماء التجريبيين وعلماء الدين. ولم يكن هناك من مقتضيات لانتقال المعلومات بين المجموعتين، ولا مناظرات أو مساجلات عن أهلية وموضوعية آراء كل منهما. وعلى هذا.. لم يكن في أسبانيا رجال مثل "جاليليو" الذي أُرغم على الاختيار بين الحياة والحقيقة. ولم يشعر العلماء التجريبيّون بأي التزام تجاه علماء الدين لشرح أو تبرير أية دوافع تجعلهم يسمون الأشياء بمسمّياتها، ويصفون الحقائق كما هي حين يكتشفونها، ولم يشعروا بأن من واجبهم أن يبرهنوا لعلماء الدين على أن تفسيراتهم للقرآن الـــمجيد ليست صحيحة لأنها تتناقض مع الحقائق العلمية المعاصرة.

وكان من نتيجة ذلك أن نشأت حركتان متوازيتان، وبالتدريج ازدادت الفُرجة بينهما اتساعا بمرور الزمن. وبهذا فقد اتخذت المعرفة الإسلامية طريقا يختلف تماما عن قنوات الفكر العلمي والفلسفي دون أن يصطدم بها، إذ كانا كما لو أنهما نهران يجريان في تواز بغير أن يعوق أحدهما تدفق الآخر.

وعلى هذا فقد تفوقت الأمة الإسلامية في الأندلس على الدول الإسلامية الأخرى في أغلب مجالات البحث العلمي. وبالإضافة إلى تميزها.. كانت أسبانيا تتمتع بعهد طويل من السلام النسبي نادرا ما يتعكر صفوه، وكانت في أمان من هجمات الغزاة من أمثال جنكيز خان وهولاكو خان. وكانت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي في الأندلس تُعتبر بحق العصر الذهبي للعقلانية. وبطرد المسلمين من أسبانيا، بلغ ذلك العهد العظيم للسيادة الإسلامية إلى نهايته، وانقطعت كل الروابط بين الإسلام والشعب الأسباني. وإذا كانت قد حدثت ردّة للتقدم العلمي والثقافي في أي مكان في العالم، فقد حدثت في الأندلس، ويا لها من ردّة مفجعة! فحيثما فُتحت الأبواب في الطرف الجنوبي للأندلس لخروج الإسلام.. خرجت معه الحكمة، والمعرفة، والإنصاف، والحق، والنور بكل أطيافه، ربما لعدة قرون، لم ترجع أبدا خلالها. غير أن النور المفقود لم يشع في الاتجاه الذي رحل إليه المسلمون المطرودون من أسبانيا، فقد غاصت أسبانيا مرة أخرى في الظلام الحالك الذي كان يغمرها قبل العهد الإسلامي. ولم ينل العالم الإسلامي نجاحا أو تقدما هو الآخر، حيث ساد فيه ظلام انتشر من الداخل. فهناك.. ساد ظلام العصبيات الدينية، والتعصب الأعمى، وضيق الأفق، والكبر والغطرسة، والأنانية وحب الذات، والغيرة والحسد المتبادل، وراح يضرب بأطنابه الحالكة، وينتشر انتشار النار في الهشيم. وقد بدا كعمود من الدخان.. يرتفع عاليا ثم ينتشر في كل جانب، وسرعان ما حَجب ضوءَ السماء، وسادَ الأرضَ من الأسفل ظلالٌ تحولت إلى ظلام ازداد حُلكة وسوادًا بمرور السنين.

أما بالنسبة لأهل أوربا الشمالية فقد اختلفت القصة تماما. إذ أن ما خسره الناس في أسبانيا كان هو ما اكتسبه أهل الشمال، وأعْظِمْ به من مكسب! إن نفس الملكة إيزابيلا والملك فرديناند اللذيْن طردا المسلمين من البلاد، لم يلبثا طويلا حتى أخذا يصبان جام غضبهما على اليهود تحت

تأثير طغيان متزايد ومتنامٍ لتعصب الكهنوت المسيحي. وكما فُتحت البوابات الجنوبية في الأندلس لطرد المسلمين، انفتحت البوابات الشمالية على أوسع ما تكون لطرد اليهود. وكان من بينهم أفراد على جانب كبير من العلم والمعرفة، فكان منهم العلماء والباحثون والمثقفون، الذين تفوّقوا في الكثير من المهن والوظائف. وكان هؤلاء قد اكتسبوا مهارات فائقة خلال القرون السبعة التي امتد فيها الحكم الإسلامي الْخَيِّر. وقد تميز اليهود في جميع مجالات المهن الإنسانية، من صناعة وتجارة، وبحث علمي، وهندسة البناء، وفن النحت، والجراحات الطبية، وغير ذلك من المجالات المشابهة. وكان من جراء التدبير المنظم والمتواصل لاضطهاد اليهود أن طُرح بهم خارج البلاد، بعد أن جُرِّدوا من كل ممتلكاتهم. وكان هؤلاء هم الذين حملوا مشاعل المعرفة على طول الطريق من الأندلس الإسلامية إلى جنوب فرنسا وما وراءها. وكانت فلسفات أرسطو وأفلاطون تصل إلى أوربا من خلال الفلاسفة المسلمين في أسبانيا. كذلك فقد بدأت تظهر على الأفق الأوربي العبقرية الطبية لابن سينا، أعظم طبيب عرفه العالم حتى ذلك الوقت، وراحت حكمة ابن رشد.. الذي جمع بين العلوم التجريبية والفلسفات الدينية.. تُلقي بأضوائها على الأفق الأوربي. وبسبب هجرة اليهود من أسبانيا انتقلت معهم منجزات المسلمين العظيمة، وتم ترجمتها إلى مختلف اللغات الأوربية. وكانوا هم في الواقع الذين أرسوا قواعد عهد جديد من الفكر والتنوير في أوربا، عُرف فيما بعد باسم "عصر النهضة".

مأزق العالم الإسلامي

حين نتحول بأنظارنا الفاحصة إلى ما بعد العهد الأسباني، فإنا نلحظ نفس الصورة القاتمة المفعمة بالمآسي تخيم بظلالها وتسدل أستارها على كل العالم الإسلامي. فمنذ ذلك الوقت، فقدت الدول الإسلامية، عدا أسبانيا (التي لم تعد إسلامية)، الاهتمام بالعلوم الأكاديمية وأمور البحث

والاستقصاء، بعد أن كان المسلمون أنفسهم هم حملة ألويتها، وكانوا هم الذين قادوا ثورة التقدم في جميع المجالات، إلى أن وصلت العلوم والبحوث في عهدهم إلى ذروة التقدم.

وقد أثبت هذا الاتجاه المؤسف والهدّام أنه ليس ضد مصلحة وفائدة العلوم الأكاديمية فحسب، بل كان ضد مصلحة الدين أيضا. فقد ازداد انقسام الأمة الإسلامية وتفرّقت في طوائف ومذاهب متعددة. وكان أعظم ضحايا هذا الاتجاه التخريبي والانتحاري هو عقيدة التوحيد، إذ بدأت تظهر شروخ في هذه العقيدة التي تباينت واختلفت تفسيراتها وتأويلاتها، حتى لكأن القوم قد صاروا يتحدثون عن آلهة مختلفة.. وليس عن إله واحد. ويبدو أن جذوة البحث عندهم لم تنطفئ، ولكنها اتخذت شكلا مختلفا، فصارت تحرق وتدمر بدلا من أن تضيء وتُنَور.

لقد استمروا يتجادلون في أمور الخطأ والصواب.. بنفس القوة والحماسة.. كما كان عليه الحال فيما سبق، غير أن موضوع المناقشات والجدال اختلف، فظلوا مستغرقين في معالجة الأمور القديمة التي أقلقت بالهم لعديد من القرون. وبدلا من بحث الأمور الجادة والهامة في الحياة، أشغل فقهاؤهم أنفسهم بتوافه الأمور.. مثل حل أو حُرمة أكل لحم الغربان. ويُقال إن حوادث شغب صاخبة قد تفجرت حول هذه المشكلة بين المعارضين والمؤيدين. وأخذت المناقشات العنيفة التي نتجت عن هذا الموضوع تزداد حدة وعنفا وتعقيدا وانتشارا. ولعله من واجب التقدير لذكائهم الاعتراف بقدرتهم على أن يجعلوا من الحبة قبة، وهو اعتراف يعكس في نفس الوقت الغياب الكامل للحصافة والفطرة السليمة، فلا يمكن تسمية ما كانوا يفعلونه سوى أنه كان مهاترات فارغة.

والبعض الآخر.. مما كان يُطلق عليه القضايا "الأكثر أهمية".. ظلت هي الأخرى تؤرق عقولهم وتثير حميّتهم بشكل يجعل الدماء تغلي في عروقهم. وكان من بينها أمور على جانب من التفاهة بمكان. وكانت

إحدى تلك القضايا "الأكثر أهمية"، والتي صارت الشغل الشاغل للعلماء الكبار في ذلك الوقت، هي مشكلة الكلب الذي قد يسقط في بئر.. فكم يكون عدد دلاء الماء التي يجب أن تُنْزح من البئر قبل أن يصير ماء البئر صالحا للوضوء. وناهيك عن الكلب ومشكلته.. فإذا اتُّهِم أحد المشايخ بالهرطقة من جانب رجال الدين في فرقة مخالفة، ثم حدث أن سقط هذا المهرطق في أحد آبار الفرقة المخالفة، فحينئذ تأخذ القضية أبعادا واسعة.. أشد خطرا وأكثر أهمية. وهنا تتحول المشكلة إلى عملية حسابية معقدة، لحساب عدد الدلاء التي يجب نزحها من البئر، وقد يُفضل البعض أن يُملأ البئر بالتراب ويُردَم ليكون قبرا لذلك المهرطق. كان ذلك هو الزمن الذي تردّى فيه المسلمون، وكانت هذه هي الأقاصيص التي انتشرت حول تعصبهم المجنون والمحموم.

ورغم أن هذه المهاترات كانت تتناول أمورا أكثرها نظرية وخيالية، إلا إنها لم تكن كلها مقصورة على القضايا الخيالية. ولا بد أن فقهاء ذلك الزمن قد فقدوا عقولهم حين شغلوا أنفسهم بالجدل العقيم حول قضية جعلت من أحد أركان الدين، وهو الصلاة، أمرا مثيرا للألم.. ومثيرا للسخرية في نفس الوقت.

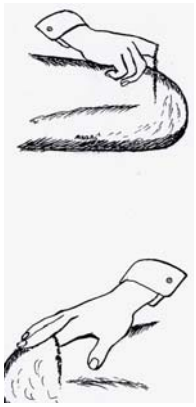

فكما هو معروف.. يتلو المصلي التشهد في صلاته أثناء الجلوس (القعدة) بعد الركعة الثانية والركعة الأخيرة. وفي التشهد يرفع البعض السبابة حين النطق بكلمة الشهادة، بينما لا يفعل ذلك البعض الآخر. ولكن فقهاء ذلك العهد كانوا في خلاف شديد على هذا الأمر. إذ أنهم صبّوا جام غضبهم على تلك الإصبع التي أثارت حساسياتهم. وكانت فتاواهم التي أجمعوا عليها هي سواء رُفعت تلك الإصبع أم لم تُرفَع.. فإن هذه الإصبع البائسة يجب أن تُبتر. لقد اختلفوا على كل شيء آخر، ولكنهم

اجتمعوا على هذا الحكم. وكانت مخاطرة أليمة حقا إن أخطأ المرء فذهب إلى المسجد الذي لا يتبع طائفته. وبالطبع لم يكن دخول المسجد يثير أية مشكلة، ولكن الخروج منه هو الذي كان يسبب كل المشاكل، إذ كان على المرء أن يغادر المسجد وقد فقدت يده إصبعا من الأصابع الخمس التي أنعم الله بها عليه.

وقضية أخرى من تلك القضايا التافهة.. كانت تتعلق بكلمة "آمين" التي يقولها المصلون بعد أن يقرأ الإمام سورة الفاتحة جهرا. وكان محْوَر البحث والنقاش الذي تفجّر هو ما إذا كانت كلمة "آمين" يجب أن تُقال بصوت مرتفع أو منخفض. وكان من المحتمل أن ينهال المصلون ضربا على من يجهر بالآمين في مسجد يعتبر أصحابه أن الجهر بها جريمة. ونفس العقوبة تكون من نصيب المنخفضين بها إذا ما قادهم حظهم العاثر إلى مسجد يرى أصحابه ضرورة الجهر بها.

ولعل أبرز القضايا الخلافية التي تسببت في إراقة الكثير من الدماء.. هي قضية ما إذا كان القرآن مخلوقا أو قديما. ولم يكن لدى الطرفين المتنازعين على هذه المشكلة أدنى شك في أن الموت هو العقاب الواجب على المخالفة في الرأي حول هذه القضية، التي يعتبرونها حيوية وهامة. ولكن تنفيذ الحكم كان يتوقف على أكبر عامل لتحقيق العدالة في ذلك الوقت، وهو عامل الصدفة البحتة. فإذا حدث أن كان الحاكم في جانب القائلين بالقدم، فإن أصحاب الرأي المعارض لم يُقتَّلوا شر قتلة فحسب، بل كانوا يُحرَقون أحياء وهم في بيوتهم. أما إذا انتقلت الصُدفة بأصحاب الرأي المخالف إلى سدة الحكم، صار الضحايا هم اليد الباطشة القاتلة. وكثيرا ما كان يحدث أن لا تنجو جثث الموتى من العقوبة، فقد كانوا ينبشون قبور المخالفين، ويستخرجون جثثهم ليعلقوها أمام العامة، حتى يعتبر بهم الأحياء. ولكن.. أي درس يمكن أن يستفيد منه المرء على أية حال؟ لقد ظل السؤال الحائر الذي لا يجد جوابًا هو: أي جانب من

الأرجوحة كان هو الجانب الأكثر أمنا وسلاما؟ إن حياة أولئك الذين انغمسوا في تلك التفاهات والمساجلات الساخنة قد تحولت إلى جحيم مستعرة على هذه الأرض، وكأن الجحيم التي كان يتوعد بها المخالفون معارضيهم بعد الموت.. لا تستطيع الانتظار لما بعد الموت حتى تتلقفهم.

لقد بدأت قرون ظلام العصور الوسطى تنشر ظلالها القاتلة في كل مكان، وتردّى العالم الإسلامي مرة أخرى في غياهب الجهل، بعد أن كان قد خرج من ظلمات الجهل إلى النور عندما سطعت شمس الإسلام على الصحراء العربية. فقد بدأت تضطرب البصيرة الإسلامية، وراحت تتغير ألوان أطيافها كما تتغير أطياف بعض النجوم في الأغوار السحيقة، حين ينظر إليها المرء في ليلة حالكة السواد، أو حين تتغير زاوية النظر، فقد فقدت الصورة الإسلامية بهاءها، وانطفأ بريقها، وضاع استقرارها.

إن الدعامتين اللتين كانتا تستطيعان تحويل ظلام الجهل إلى نور المعرفة.. بدا أنهما قد تحطمتا إلى الأبد. فلم يكن هناك من وضوح ولا استقامة في الرؤية، ولا كان هناك أمل يُنتَظر في وحي يأتي من السماء. إذ كانتا هاتان النافذتان بالنسبة لهم قد أُحكِم إغلاقهما. فما أشدَّ قسوةً تلك المأساةَ التي حلت بالعالم الإسلامي!

ومع ذلك.. وبعد بضعة قرون.. بدأت شمس العلوم والمعارف تشرق مرة أخرى، ولكنها كانت تشرق هذه المرة من الغرب. وكان على الشرق أن يتحول بناظريه إلى الغرب، ليلتقط لمحة من ذلك النور الذي كان لهم أنفسهم الفضل في تنوير الغرب به، منذ قرون بدت بعيدة.. بعيدة.. في غياهب الماضي السحيق.